كتاب الجيل

أناتول فرانس

"كاتب الحياة العظيم"

للكاتبة زينب محمد حسين

فى صبيحة اليوم السادس عشر من شهر أبريل سنة ١٨٤٤ استيقظ العالم وقد اكتسى حلة جديدة نسجت خيوطها يد دقيقة تبعث فى الناس نورا رائعا هو مزيج من الحب والمعرفة والحكمة، أجل ففى ذلك اليوم التاريخى المشهود ولد كاتب الحياة العظيم اناتول فرانس .

وأناتول فرانس فيلسوف ساخر قاس ، وطالما استخدم قلمه فى التنديد بتقاليد المجتمع ومصطلحاته متخذا من النفوس البشرية مادة للتحليل والملاحظة، وهو عند ما يندفع فى تحليل نفسيات البشر يتغلغل فى أعماقها حتى يحس الواحد أنه إنما يغوص فى أعماق النفس يستخرج منها صورا من الميول المنحطة التى تفيض بها النفس البشرية مكتسية بنور باهت ضعيف من سمو النفس ونواحى الخير .

ويحق لنا أن ندعو أناتول فرانس بكاتب الحياة لأنه كان يفهم الحياة حق الفهم ومن ثم فهو يدعو الى تعديل أوضاعها والثورة على قوانينها السخيفة، لذلك فهو يستمد موضوعاته من الحياة ذاتها وإن كان المدد يأتى على نظرة أعمق للحقيقة .

فنحن اذا قرأنا أناتول فرانس نجد أن الحوادث التى يصورها عادية الوقوع ، وأن الأشخاص الذين يتخذهم أبطالا لمواضيعه، إنما هم فى الحياة أشخاص كثيرا ما نصادفهم وربما كنا أنفسنا ضمن هؤلاء الأشخاص بميولنا وعواطفنا ونقائصنا ، فهو إنما يصور الحياة الانسانيـــة فى مختلف الصور و بين نفسيات جميـــع الشعوب ، فلم يتخذ لفكره وطنا معينا ، وإنما تركه حرا ينساب بين نفوس البشر فى مواطنهم محللا منهم الشخصية ، متخذا من أوضاعهم الغريبة موضعا لسخريته المريرة ونقده القاسى المنيف ، وهو فى كل هـذه التحليلات واللذعات إنما يضفى عليها قبسا من روحه الفنية فيلقى عليها ضوءا من مستواه العالى الرفيع ، فهو فى معالجته الفن يتمثل بقوله : " إن الفنان لا يكون إلا واحدا من اثنين، فهو إما أن يودع روحه فيما ينتجه، وإما أن يخرج دمى ويزخرف ألعوبات لا أخالك تتوقع منى أن استفيض فى تحليل شخصية أناتول فرانس فى آدابه، فهو بالرغم من سهولة عرضه للفكرة عميق التفكير نزاع الى التغلغل فى الدراسة إلى حد أنه قد يعالج الفكرة إنشاء الحويته الخاصة وإن كان فى الظاهر يبدو أنه مثال البساطة والسهولة ، فهو عبقرى أوتى حظا كبيرا من النبوغ حتى لقد قال فيه أحد الكتاب " كأنى بعبقرية أناتول فرانس قد ولدت شاكية السلاح مثل " أثينا " إلهة الحكمة عند الاغريق " .

انحدر أناتول من أب يتجر فى الكتب ، فكان نوع تجارة الأب سببا فى شغف الابن بالمطالعة والدرس ، حتى لقد اتجه ميله إلى معالجة العمل الصحفى وقرض الشعر والقصص القصيرة ، فكان يستلفت الأنظار بجمال أسلوبه ومعانيه المشرقة وتعبيراته الرائعة ، حتى لقد شجعه الاعجاب الذى كان يلقاه آنئذ إلى طبع أن كتابا عنوانه Maigre jacast et le chat فلقيت هذه المجموعة إقبالا عظيما مما شجعه على اخراج أولى رواياته الخالدة Le Crime de Sylvestre Banard فلقيت نجاحا كبيرا واحتفى بها المجمع العلمى الفرنسى " الاكاديمى فرانسيز " .

كانت هذه الرواية أولى درجات المجد العظيم الذى سرعان ما ارتقاه كاتب الحياة العظيم أناتول فرانس فانتخب عضوا فى المجمع العلمى الفرنسى بعد أن توج بوسام الليجون دونور . وأحرز جائزة نوبل فى الآداب تبرع بها كاملة سنة ١٩٢٠ لأهل روسيا أيام المجاعة ، فقد كان نصيرا للطبقات الفقيرة عدوا لولاة الأمور الطغاة الذين لا يرعون العدل ولا تبارح نفوسهم القسوة والاضطهاد .

وقد كان أناتول فرانس من أشد المتمسكين بحرية الرأى وتحرر الفكر من ربقة القيود لذلك نراه لم يأسف عند ما رأى أن مجاهرته برأيه فى قضية دريفوس المشهورة ستكون سببا فى فصله من وظيفته ، بل لقد كان قلمه الجرىء أحد الأسباب فى تسيير مجرى القضية فى الطريق الذى سلكته .

ويطيب لنا أن نتناول نتفا من روايته الخالدة "جريمة سلفستر بونار" التى كانت الأساس المتين الذى شاد عليه حياته الفنية ، وهذه القصة تؤيد كثيرا مما ذهبنا اليه فى تحليل شخصية أناتول فرانس فمن يقرؤها يشعر أنه انما يساير حادثة عادية كثيرا ما يصادفها فى حياته ، ولكن اذا تمعن فيها قليلا فلكى يجد لونا من ألوان العمق الفكرى والسخرية اللاذعة .

والقصة كما يقول بعض كتاب العصر صورة قريبة لحياة أناتول فرانس نفسه فهو ذو مستر بونار بأفكاره وشعوره وآرائه ، فمن يراه وهو فى ثوب الساخط على المجتمع عندما تحدثه خادمته تيريز عن كوكوز بائع الكتب المتجول الفقير ساكن الطبقة العليا من المنزل الذى يقطنه هو وزوجه التى على وشك الوضع فيقول " آه من الطبيعة وما أشد قسوتها وما أبرعها فى نصب فخاخها لإتمام تدبيرها . إن هذين الزوجين التعسين لم يقصدا الأتيان بولد الى هذا العالم ، ولكنهما كانا دميين انساقا الى الوقوع فى شرك الطبيعة لعدم تبصرهما وهاهى غلطتهما قد أثمرت وآتت أكلها ، وهاهو بؤسهما قد تضاعف ، ليت شعرى ما الذى سيلاقيه ذلك الولد التعس فى هذا العالم .

ثم نراه يلتمس العذر ممزوجا بسخرية من المجتمع للزوجة التى تدفعها الحاجة إلى المتاجرة بجمالها فيرد على خادمته الثرثارة تيريز « صونى عرضك جيرانك يصونوا عرضك وعرض سيدك العجوز » .

ثم يصور لك أناتول فرانس فى لمحة عارضة — حتى يوهمك أنه لم يقصدها — ذلك الطفل البائس الذى وقف أمام كوخ ملىء بالحلوى والأشربة المرطبة ، وكان يرتدى اسمالا بالية يبدو من خلالها جسده الناحل ذو العظام البارزة والعروق النافرة ، وهو يتطلع بعينين يبدو فيهما الجوع وشهوة الأكل والتمنى بدو شيء غير قليل من السذاجة والقحة . فلم يلبث الكاتب أن ابتاعها على يد سلفستر بونار ليطفىء بذلك نهم الصبى المسكين .

لكن الصبى البائس لم يصدق ما يراه ، أو على الأصح لم يصدق أن ذلك الشيخ الذى يمد له يده بالكعكة يجد فى عمله هذا ، بل هو هازل يبغى التسلية كعادة بعض المترفين وذوى اليسار ، ويتساءل الكاتب عن علة هذه الخواطر التى جالت فى نفس الصبى فيقول : (ألا يكون نضوج عقله المبكر على نار البؤس والحاجة قد علمه ألا يعتقد فى الصدقة الحسنة والقلوب الرحيمة) لقد رأى وقتئذ ذلك الفتى ولسان حاله يقول : أنت قاس ياسيدى ، أتبلغ بك قسوتك أن تسخر منى إلى هذا الحد ؟

ولكنه يعود فى موضع آخر كى يحيى فى نفوس الفقراء فضيلة العرفان بالجميل فيذكر أن جزلة الحطب التى أهداها يوم عيد الميلاد لمدام (كوكوز) التى كانت تقطن غرفة السطح ذات الثقوب المتعددة من منزله ووعاء الحساء الذى جاد به عليها فى احدى الأمسيات الباردة لم يبارحا ذاكرة مدام كوكوز مع الفقر والجوع وانما تذكرت صنيعه الكريم عندما صارت ذات يوم (البرنسيس تريبوف) فردت له — دون أن يعرف من أين — جزلة حطب كبيرة لكنها مجوفة تضم داخلها طاقة كبيرة من البنفسج مع النسخة المخطوطة من (التراجم الذهبية) التى حاول السيد بونار أن يشتريها فعجز عن دفع ثمنها المرتفع .

وفى تسبيح العابد وهمهمة المؤمن يقول لنفسه (هاهى ذى قد ظلت تذكر جزلة الحطب التى أرسلتها اليها يوم مخاضها حتى ردتها إلى جزلة من الهناء والسعادة ، بل جزلة من الحياة معطرة بمزيج من الامانة والوفاء) .

ويصعب علينا أن نصطحب معنا القارئ فى هذه الجولة الممتعة بين دفتى " جريمة سلفستر بونار " فربما تحمسنا له — ونحن بذلك جد سعداء — تحمسا يخرجنا عن وقار هذه الصحيفة ، أو ربما توهمنا أننا نرتشف من معين لا ينضب ماؤه ولا تفنى عذوبته مما قد لايقرنا عليه القراء ، فلننتقل من هذه الصور الفاتنة التى تسرى فى " سلفستر بونار " إلى قصته " طالع بونابرت " التى نشرها فى مجموعته القصصية واسمها Contes de Tournebroche .

ففى هذه القصة يحلل لك أناتول شخصية نابليون بونابرت غير غافل عن تلك الخوالج التى تجول فى صدر الانسان الذى يسعى وراء المجد والشهرة فهو هنا يراقب ويرصد حركات نابليون بعين حذرة وبيد ماهرة لايفوتها أن تدون مايجول فى النفس ولا يصرح به اللسان ، فهو يعطى للناس درسا فى الحياة إذا تفهموه ضمنوا حياة موفورة ومجدا مضمونا ، ألا تراه يفصح عن هذا الدرس بقوله على لسان نابليون « ان المستقبل خليق بالازدراء ويجب ألا يحسب حساب

إلا للحاضر فقط ، كما يجب أن يكون الانسان جريئا قادرا ثم يترك الباقى للحظ " ثم يوضح لنا أناتول فرانس أساليب الانسان فى الحياة فيقول " يجب ألا يتقيد الانسان بفكرة مرسومة وهدف معين ؛ بل يجب عليه أن يترك للحوادث أن تسيره كيفما شاءت ، فيترك قياده لها على ألا يغفل عن الاستفادة بأقل الفرص التى تهيئها له كما يستفيد من أعظم الحوادث، وألا يفعل سوى ما يمكنه ، ولكن كل ما يمكن " .

ألا ترى معى أن أناتول فرانس يفهم الحياة فهما يستحق معه أن يلقب بكاتب الحياة العظيم ؟ فهو مع استغلاله لكل الظروف التى تتاح له فى الحياة لا يغفل مطلقا عن أن يذكرنا بقوة الحظ فى حياة الانسان ؛ فهو كما يتضح لنا من قراءة قصة طالع نابليون يعزى نجاة ذلك الطاغية فى مخاطرته بالسفر من مصر إلى فرنسا إلى الحظ وحده .

وفى روعة الكاتب الذى يحدثك فرانس عن الحكم والحكام فيقول " إن الرجال ذوى الضمائر الحية هم وحدهم الذين يمدون السلطة بالتأييد القوى ، أما ذوو الضمائر الميتة فلا ينشرون سوى اشمئزاز عميق ، فالاستقامة ضرورية للحرية ، ضرورة الفساد للطغيان ، وان النزاهة خلة طبيعية وتخلق مع الرجال الذين يولدون للحكم " .

لقد كان أناتول فرانس عالما بأسره يجمع فى فنه كل العواطف البشرية والميول الانسانية وإن كان بعض الكتاب الذين كل همهم فى الحياة النظر إلى أعمال العظماء بعين ملؤها الحسد والسخيمة يعيبون عليه عزلته واستهتاره وابتعاده ما استطاع عن الألم والهموم لا يهمه العالم فى قليل أو كثير ذو شخصية ضعيفة ضيقة الخيال .

وإن كان هؤلاء الأدعياء لم يرتفع لهم صوت فى حياة أناتول فرانس بل قد يكون بينهم من كان يدق له فى حياته طبول المديح ويكيل له الحمد ، فذلك لأنهم تنقصهم الشخصية التى يجدون أناتول منها .

فمن الغريب أنهم يرمون أناتول فرانس بأنه لم يتألم يوما ، ولست أدرى ماذا إذن هى آداب أناتول فرانس إن لم تكن قد نضجت فى بوتقة من الألم الصارخ والعذاب الأليم ؟ وكيف لم نر أناتول فرانس وهو يتألم فى " سلفتر بونار " من أجل مدام كوكوز ، وكيف لم يتألم لجين تلك الفتاة البائسة التى تنكر لها وصيها "موش" لما لاقت من صنوف الاضطهاد والذل والبؤس ما جعل أترابها فى المدرسة ينفصلن من زمالتها ، فيختطفها "سامدر" من تلك المدرسة معرضا نفسه لحكم المادة ٣٥٤ من القانون لى يعرض نفسه للموت طبقا لقانون " أورد ينانس دى بلوا " سنة ١٥٧٩ ، ثم يخلص فرانس من كل هذا بقوله " إننى أرضى أن أكون مجرما يستحق العقاب لو اعترف القانون أن نظام الوصاية نظام مجرم لا يستحق العقاب وحسب بل يستحق الإعدام أنا لن أمكنهم من عقابى لأنى أحسنت القصد ، ولم أبغ إلا الخير ، ولم أرد إلا الإصلاح أجل ، لا أوافق على العقاب ، لأنى لم أكن مجرما أبدا " .
لقد تألم أناتول فرانس ألما تولد عنه أكثر إنتاجه .

أما السخرية من أوضاع الحياة التى يرمون بها أناتول فرانس فهى سخرية الساخط لا المتشائم فهو إذا كان قد هاجم الأخلاق والقضاء والتشريع والوطنية ، فإنما لأنه قد اخترق حجب النفس البشرية واكتنه أسرارها فظهرت له سافرة ، وحقيقة مجردة ، فهو إذن يتميز هنا بالصراحة ، الصراحة التى إن لم تعنون تشخيص الطبيب لقضى المريض حتما ، فهو هنا كالطبيب الذى يضع أصبع المهارة على مكان الداء

أما اليأس من إصلاح الناس الذين يرمون به "أناتول فرانس" فهو مجرد اختلاق محض ، فلن ننسى مطلقا أنه جعل من مدام كوكوز امرأة عارفة بالجميل تبدو طهارة نفسها وصفاء طويتها بعد أن أصبحت الأميرة تريبوف فردت له إحسانه أضعافا مضاعفة .

من العبث أن نوضح أعمال فرانس التى يأخذها عليه منتقدوه فهى واضحة لكل ذى عينين صافيتين ، ولكننا نبدأ وننتهى الى أن أناتول فرانس هو "كاتب الحياة العظيم" بلا منازع .

زينب محمد حسين

وضعيفة فإذا أصابت فرصة   قتلت ، كذلك قدرة الضعفاء !

« أبو تمام »